الباب الثاني

لماذا انهارت دولة بني العباس ؟

المتوكل على الله (جعفر) (٢٣٢-٢٤٧هـ):

هو جعفر بن المعتصم بن الرشيد المولود في شوال سنة ٢٠٦هـ، وقد تولى الخلافة حين أوصى بذلك ابن دواد؛ فبايعه الناس في يوم وفاة الواثق في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢ واستمر يحكم نحو أربع عشرة سنة إلى أن مات مقتولاً.

وبداية من تولي ذلك الخليفة الحكم بدأ تسلط الأتراك يظهر سافراً، وتدخلهم في تصريف أمر الدولة يتخذ شكلاً واضحاً.

الطريف أن المتوكل أراد الخلاص من الترك أو إضعاف شوكتهم، فقرر الانتقال من سامراء إلى دمشق، بيد أنه لما أمضى بدمشق بضعة أيام عاد إلى سامراء، وشرع في بناء مدينة أخرى قرب سامراء سمّاها المتوكلية واختط بها قصراً سماه اللؤلؤة.

لكن الأحداث توالت على المتوكل فأجهضت ما شرع في أدائه من مشروعات؛ ومن ذلك فتنة محمد بن البعيث في أذربيجان، وكان محمد

محبوساً منذ زمن المعتصم، وأراد خصوم المتوكل إطلاقه من الحبس بقصد مناوأة الخليفة فسهّلوا له الفرار، فانطلق إلى أذربيجان وتحصن فيها، وجمع الأتباع والأنصار وناوش الدولة، وبعد قتال عنيف اقتحمت جنود المتوكل أذربيجان وظفرت بابن البعيث وقادته إلى المتوكل فأمر بضرب عنقه، لكنه بعد شفاعة خاصة الخليفة عفا عنه.

ومن الفتن التي صادفت المتوكل وأقضت مضجعه فتنة خروج كبير بطارقة أرمينية على الدولة، والمطالبة بالإمارة لنفسه، وقتل هو وأنصاره أمير أرمينية وجنده، فجرد المتوكل حملة كبيرة سارت إلى أرمينية فدكت حصونها، وظفرت بالثائرين وعادت بهم إلى المتوكل.

وفي عهد المتوكل نشأت بصنعاء دولة بني يعفر نسبة إلى يعفر بن عبدالرحيم بن إبراهيم الحوالي، واستمرت نحو مئة وأربعين سنة.

لم ينسَ الترك للمتوكل أنه أراد الخلاص منهم، فقرروا الخلاص منه، ومالوا إلى المنتصر ابنه، وزينوا له الخلاص من أبيه. كمن الترك للمتوكل وسلّوا عليه السيوف وقتلوه ووزيره الفتح بن خاقان وذلك ليلة الأربعاء الرابع من شوال سنة ٢٤٧هـ.

وبموته بايع الأتراك المنتصر في ذات الليلة.

المنتصر بن المتوكل (٢٤٧-٢٤٨هـ):

من الآن يبدأ عهد الانحطاط في الدولة العباسية، وها هو الابن يساعد على الخلاص من أبيه لتسرع إليه السلطة، وماذا فعل المنتصر بعد أن تولى الخلافة؟

لقد اشتد طغيان الترك وتسلطهم على الدولة؛ وها هم يقتلون الخلفاء ويولّون الخلفاء، فصار الخلفاء لعبة في أيديهم؛ لذا هابهم الخلفاء ولم يجسروا على رفض مطالبهم مهما غالوا في الطلب.

وهل طابت الحياة للمنتصر الذي استعجل الخلافة على جثة أبيه المقتول؟! لا؛ فقد انتابته الكوابيس، وأرقت نومه الرؤى، حتى صار من السقم كالشبح أو الخيال، وها هو تصيبه علة غريبة تقضي عليه، ولم يمكث في الخلافة غير ستة أشهر، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ.

توالى على العرش خلفاء كثيرون، حتى وصل عدد خلفاء بني العباس سبعة وثلاثين خليفة أولهم السفاح، وآخرهم المستعصم بالله الذي انتهت الدولة بمقتله على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هجرية، وبذلك طوى التاريخ صفحة تلك الدولة كلها لتذهب بدداً.

هيا بنا نسلّط الأضواء على بعض الخلفاء الذين تولوا بعد المنتصر، ولنكتف بمن كان له منهم في التاريخ أثر جليل أو ذكر حميد.

المهتدي بالله بن هارون الواثق (٢٥٥-٢٥٦هـ):

هذا الخليفة حسن السيرة، أراد الخلاص من سلطان الترك فقضوا عليه. إنه المولود سنة ٢١٨هـ، وقد بويع بالخلافة في رجب سنة ٢٥٥هـ، وتولى نحو سنة ثم خلعه الترك.

لقد خلع الترك المعتز بن المتوكل، وأرسلوا إلى بغداد فأحضروا محمد بن هارون إلى سامراء وبايعوه بالخلافة، لكنه في البداية رفض الخلافة إلى أن يلتقي بالمعتز.

فلما التقيا حاول محمد الصلح بينه وبين الترك، لكن المعتز رفض فرُدَّ إلى حبسه، وتولى محمد الخلافة، ولقب بالمهتدي بالله.

من الأمور الحسنة التي حرصنا على ذكرها لذلك الخليفة أنه استوزر سليمان بن وهب بن سعيد وكان من الكتاب العقلاء وقد مدحه أبو تمام والبحتري.

كان المهتدي بالله من الخلفاء الذين يكرهون الظلم ويسعون إلى رفعه، ومن ثم فقد بنى قبة المظالم وجلس فيها لإقرار العدل.

لكن الترك انقلبوا عليه وهاجموه في قصره وحملوه بغية أن يخلعوه فثارت العامة، وكتبوا الرقاع وألقوها في الطرقات، وأسرعوا لنجدته، فخاف الترك من بطش العامة وثورتهم فأطلقوا المهتدي بالله، واعتذروا له بضيق الأقوات وسوء الأحوال.

المعتمد على الله بن المتوكل (٢٥٦-٢٧٩هـ):

هو أحمد بن المتوكل بن المعتصم المولود سنة ٢٣١هـ وقد بويع بالخلافة في رجب سنة ٢٥٦هـ وظل خليفة ثلاثًا وعشرين سنة، بايعه الأتراك بالخلافة شريطة أن يولي أمر الجيش أحد إخوته، فوافق أحمد وولّى أخاه طلحة أمر الجيش والولايات.

ثار في عهده صاحب الزنج الذي زعم أنه علي بن أحمد ومن نسل علي بن أبي طالب، قدم صاحب الزنج البحرين سنة ٢٤٩هـ، ودعا الناس إلى طاعته، ولم تمض سنوات حتى عظم مقامه بين أهل البحرين، فانتقل إلى البصرة سنة ٢٥٤هـ وإلى بغداد واستعان بالعبيد من الزنج ومنّاهم بالحرية، والتقى صاحب الزنج مع جيوش الخليفة وهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأحرق العبيد مدينة الأبُلَّة، وانضم لصاحب الزنج المزيد من العبيد.

ولكن الله تعالى شاء أن يُهزَم صاحب الزنج وأعوانه حين قاد طلحة -أخو الخليفة الجيش- ودارت موقعة ضخمة قتل فيها صاحبُ الزنج وانهزم العبيد، وانكسرت شوكتهم، وذلك أواخر سنة ٢٧٠ هجرية.

كانت السلطة مركزة في يد طلحة أمير الجيش، وما إن مات المعتمد حتى أسرعت الخلافة إلى طلحة وتلقب بالمعتضد.

والآن نتحدث عن أعجب الخلفاء العباسيين سيرة ألا وهو القاهر أبو منصور محمد بن المعتضد (٣٢٠-٣٢٢هـ) والذي تولى الخلافة عقب مقتل المقتدر بالله بن المعتضد (٢٩٥-٣٢٠هـ).

تولى القاهر الخلافة مدة سنة ونصف السنة، ثم خلعوه في نيسان سنة ٩٣٤م.

كان خلفاء بني العباس في العصر الثاني على ضعف انحلال، حتى لقد وصل بهم الأمر إلى التافه من الأمور جرياً وراء المال، وشاء الله سبحانه تعالى التنكيل بالخليفة الظالم؛ فقد كرّت السنون، واتفق خصومه على خلعه، وكان من بينهم محمد بن ياقوت، وعبدالواحد بن المقتدر، وابن مقلة، ووزير القاهر ذاته واسمه مؤنس، واتفق المتآمرون على الخلاص من الخليفة، لكن الخليفة أخذهم بالخديعة وقتلهم عدا ابن مقلة الذي حرَّض جند

الخليفة عليه، فزحفوا إلى القصر وقتلوا كثيراً من أعوان القاهر، ثم قبضوا على الخليفة وحبسوه وأعلنوا خلعه من الخلافة.

وتولى مكان القاهر أبو العباس أحمد بن المقتدر (٣٢٢-٣٢٩هـ) وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ، وتسمى بالراضي، وَوَلِيَ نحو سبع سنين إلى أن توفي في ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ.

لم يكن في عهد ذلك الخليفة من جليل الأعمال ما يذكر غير أن بني بويه تغلّبوا على فارس، وبدؤوا في مناوشة بني العباس.

لكن الوزير ابن رائق فكر في استوزار أبي عبدالله البريدي صاحب الأهواز. رضي البريدي وتقلّد الوزارة، ثم فكر ابن رائق في قتال البريدي، فأرسل جنداً كثيفاً إلى الأهواز لكن البريدي استطاع هزيمتهم، ثم زيَّن البريدي لابن بويه غزو العراق والاستيلاء عليه، فاستولى على الأهواز.

وفي عهد الراضي ظهرت دولة بني الإخشيد بمصر على يد مؤسسها محمد بن طغج الإخشيد وكان من موالي أحمد بن طولون.

وفي عهده أيضاً مات عبيدالله المهدي أول الخلفاء الفاطميين.

ولم يلبث الراضي أن توفي في ربيع الأول سنة ٣٢٩ هجرية.

وتولى بعده إبراهيم بن المقتدر الذي تلقب بالمتقي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ).

ونصل الآن في رحلتنا الحثيثة في التاريخ بعد أن قلبنا صفحاته إلى عصر حجة الإسلام أبي حامد الغزَّالي، والخليفة العباسي السابع والعشرين المقتدي بأمر الله.

هو أبو القاسم عبدالله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله، وقد بويع في شعبان سنة ٤٦٧ هجرية، وظل خليفة مدة تسع عشرة سنة وثمانية أشهر.

كان ذلك الخليفة من أفضل بني العباس، فقد كان تقياً يغلب عليه الصلاح، وقد أبطل الغناء والعزف، ونفى المغنيات من بغداد.

وأقبل الخير على قدومه، وعظمت في أيامه الخلافة.

اتخذ الخلفية له وزيراً نظام الملك أبا علي الحسن بن علي بن إسحاق، فمضى ذلك الوزير الهمام يبني دور العلم والمدارس وأطلق عليها المدارس النظامية، وأجرى على مدرسيها ومعلميها وطلبتها الأرزاق، وشجع العلم وأهله، وأسقط الضرائب والمكوس، واصطفى للمحاضرة في مدرسته ببغداد حجة الإسلام أبا حامد الغزَّالي.

لكن من المؤسف أن نظام الملك مات مقتولاً سنة ٤٨٥هـ، ولم يلبث الخليفة المقتدي بأمر الله أن لحقه بعد عامين.

وتقلب على عرش الخلافة العباسية خلفاء كثيرون، ومن هؤلاء المستظهر بالله بن أبي العباس (٤٨٧-٥١٢هـ)، الذي حكم أربعاً وعشرين سنة وكان ليناً كريم الأخلاق، يحب الخير والكرم فأحبته رعيته.

لكن في عهد ذلك الخليفة ظهرت طائفة الباطنية، وأغارت الفرنجة على ديار الإسلام، وبدأت الحروب الصليبية، ومات الخليفة في ربيع الآخر سنة ٥١٢ هجرية.

ظهر تدخل سافر في أمور البلاد أيام المسترشد بالله بن المستظهر (٥١٢- ٥٢٩هـ). كان سلطان العراق هو محمود بن محمد بن ملكشاه، وقد وقع نزاع بينه وبين ابن عمه، ثم بينه وبين أخيه مسعود حاكم الموصل وأذربيجان، وانتهى النزاع بهزيمة السلطان محمود، ثم توفي ذلك السلطان سنة ٥٢٥هـ، وسرعان ما استولى مسعود على الحكم باسم غيّاث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه.

لكن النهاية كانت مأساوية؛ إذ سرعان ما قُتِل الخليفة المسترشد بالله على يد الباطنية، وتولى ابنُه الراشد بالله أبو جعفر المنصور (٥٢٩-

٥٣٠هـ)، وقد علم أن قتل أبيه كان بإيعاز من مسعود فحاول الخلاص منه بيد أن مسعوداً أسرع بخلعه من الخلافة.

خلفه أبو عبدالله الحسين المقتفي لأمر الله ابن المستظهر (٥٣٠-٥٥٥هـ) وقد اختاره السلطان مسعود للخلافة في ذي الحجة سنة ٥٣٠هـ، وظل خليفة مدة ٢٥ سنة، وتزوج أخت السلطان مسعود، وفي سنة ٥٤٧ هجرية توفي السلطان مسعود، فأسرع الخليفة بطرد السلاجقة من بغداد، وأرسل جنوده فاستولت على بلاد العراق كلها، وتولى بعد موته ابنه المستنجد بالله سنة ٥٥٥ هجرية.

كان المستنجد بالله (٥٥٥-٥٦٦هـ) من خيرة الخلفاء؛ فقد أبطل المكوس وأزال المظالم واشتد على أهل الفساد وحكم إحدى عشرة سنة.

لكن من المؤسف أن يكون حفيده المسمى بالناصر لدين الله أبي العباس أحمد (٥٧٥-٦٢٢هـ) -وظل خليفة مدة ست وأربعين سنة- متهماً بالاتصال بالمغول، بل واستدعائهم والإغارة على خوارزم وخراسان للخلاص من السلطان علاء الدين تكش الذي اتسع ملكه حتى أنهى ملك السلجوقيين بالعراق سنة ٥٩٠ هجرية.

وأصل الحكاية أن علاء الدين لما تغلّب على دولة السلاجقة اشتاق إلى سماع اسمه على منابر بغداد بدل السلاجقة، وأرسل إلى الناصر لدين الله

برغبته فرفض خليفة بغداد واشتدت الخصومة بينهما، حتى لقد قطع علاء الدين ذكر الناصر على منابر بلاده.

من هم المغول؟!

لابد أن نقف الآن طويلاً لنجيب معاً عن ذلك التساؤل.

المغول من شعوب منغولية، وقد أفلح جنكيز خان في جمع فلولهم فعظم أمره، وقويت شوكته، وحارب قبائل الترك وانتصر عليها. فانضووا تحت لوائه، وأصبحت مملكته واسعة وعاصمتها قراقروم.

ووضع جنكيز خان لأمته كتاباً ليكون دستوراً لها هو إلياسة، ومن ضمن طرائف ذلك الكتاب أن يتم أكل الحيوان أو الفرس بعد أن تكتف قوائمه ويشق بطنه.. وإن من بال في الماء أو على الرماد قتل.

سبق لنا القول إن المغول قد أقبلوا إلى ديار الإسلام بدعوة من الناصر لدين الله إلى جنكيز خان لكسر شوكة علاء الدين وتأديبه وإذلاله، ولكيلا يفكر علاء الدين في غزو بغداد.

لكن علاء الدين تدارك الأمر، فلما أرسل جنكيز خان يطلب إليه أن تكون بينهما تجارة لم يتردد علاء الدين في قبول الفكرة، وأكرم رسل جنكيز خان، ورضي جنكيز خان بذلك وكان ذلك سنة ٦١٢ هجرية.

لكن حدث بعد ثلاث سنين أن وصل تجار من لدن جنكيز خان إلى بلدة تابعة لعلاء الدين، فطمع والي البلدة في الاستيلاء على أموالهم، وأرسل إلى علاء الدين أن جواسيس أرسلهم جنكيز خان في زي تجار قد قدموا عليه، فأمر علاء الدين الوالي بقتلهم والاستيلاء على بضاعتهم، وهاج جنكيز خان لما علم الخبر، وأرسل رسولاً يستفسر من علاء الدين، لكن علاء الدين سارع بقتل رسول جنكيز خان الذي أمر بالتعبئة لحرب علاء الدين.

أما علاء الدين فإنه آثر أن يباغت المغول في ديارهم وأمر سكان المدن على حدود بلاده بالجلاء عنها ثم عاد إلى بلاده.

أما جنكيزخان فسار بجيوشه الجرارة إلى أن عبر نهر سيحون ودخل بخارى فإذا بها خاوية من الجند الذين هجروها لما علموا بقدومه للغزو. فأباح لجنده النهب والقتل والسبي، ثم توجه نحو سمرقند.

خرج أهل سمرقند لقتال المغول، فانكسرت شوكة الأهالي واحتل المغول المدينة وقتلوا من فيها جميعًا، واستباحوا كل الحرمات وذلك في سنة ٦١٧ هجرية.

ثم أمر جنكيز خان جنده بالمسير إلى علاء الدين، فلما علم علاء الدين بذلك فر إلى نيسابور ثم فر ناجياً في سفينة عبرت بحر قزوين.

فلما يئس جند المغول منه خربوا الري وهمذان وقزوين وتبريز ومراغة.

وقبل أن يموت جنكيز خان سارع بتقسيم مملكته الشاسعة بين أبنائه الأربعة وكان ذلك سنة ٦٢٤ هجرية، وكانت مملكته تمتد من بلاد الصين شرقاً إلى العراق وبلاد الروس غرباً، ومن بلاد الهند جنوباً إلى بحر الشمال.

بعد وفاة الملك الناصر لدين الله في رمضان سنة ٦٢٢ هجرية تولى الخلافة ابنه الظاهر بأمر الله، فسار في الناس بالعدل وأطلق المكوس ومن في الحبوس، لكنه لم يمكث في الخلافة غير عام واحد، وورثه ابنه المستنصر بالله سنة ٦٢٣ هجرية، ثم حفيده المستعصم بالله أحمد عبدالله آخر خلفاء بني العباس سنة ٦٤٠ هجرية.

كان المستعصم خيِّراً ذا دين وعفة، بيد أنه كان ضعيف الرأي، ولم يكن له خبرة بالحروب، وكان منصرفاً إلى مطالعة الكتب، تاركاً تصريف أمور الدولة إلى وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي وكان من الشيعة، وحدث أن قامت فتنة كبيرة حين انقضّ أهل السنة على الكرخ وقتلوا أهله وأذلوهم، فلم يهدأ للوزير العلقمي بال حتى كاتب هولاكو بن تولوي بن جنكيزخان يستدعيه لغزو بغداد والثأر من أهل السنة، كان هولاكو حفيد جنكيزخان وقد أسعدته الرسالة كثيراً فسار بجيوشه الجرارة إلى بغداد في شهر المحرم من سنة ٦٥٦ هجرية.

عمد الخليفة المستعصم إلى إغلاق أبواب المدينة، لكن المغول وقد اشتدوا في القتال فهدموا الأسوار، واقتحموا بغداد بعد حصار دام عشرة أيام، وأعملوا في أهلها القتل والطعن إلى أن طلب الخليفة لقاء هولاكو، وخرج إليه باللآلئ والدرر، فأمنه هولاكو، على حياته، ثم فارق بغداد بصحبة الخليفة وأولاده في صفر من السنة نفسها وأطلق جنده يعيثون في بغداد نهباً وفساداً، ثم عمد هولاكو إلى قتل الخليفة وأولاده وحاشيته بعد أن سلّم بغداد إلى العلقمي الذي كان له دور في مساعدة المغول والعمل لهم.

وسبحان من له الدوام..

الدولة العباسية في الميزان:

نبدأ الآن في تحليل شامل لدولة بني العباس نرصد ما لها وما عليها.

لقد بدأت دولة بني العباس بداية قوية سنة ١٣٢ هجرية حيث نودي بالبيعة لأبي العباس السفاح بصفته أول الخلفاء العباسيين، واستمرت الدولة أكثر من خمس مئة سنة إلى أن سقطت تحت جحافل المغول.

كان عهد السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق عهد ازدهار للدولة، فيه قبض الخلفاء على أعنة الأمور بقوة واقتدار وصرَّفوا أعمال الخلافة على أفضل وجه.

لكن بعد انقضاء عهد الواثق تقلّص ملك العباسيين وانحسرت معظم ممالكهم حتى أصبحوا لا يحكمون إلا العراق والأهواز وفارس، وغلب على أمر البلاد أمراء من الفرس، واستقل بنو بويه ببغداد نفسها مقر دار الخلافة سنة ٣٣٤ هجرية.

وفي الهزيع الأخير من عمر الدولة ملك السلاجقة زمام الأمور، وحين انحسر المد السلجوقي عن بغداد تأرجحت موازين الأمور، ولم تثبت على حال إلى أن انقضت الدولة بكاملها سنة ٦٥٦ هجرية.

والآن حان الوقت لنفصل بعض ما غمض من أسباب انهيار الدولة العباسية.

الموالي والدولة:

قامت الدولة العباسية على تأييد الموالي المتلونين الذين أسلموا بألسنتهم الذين كان أغلبهم من بلاد فارس، وكان الخلفاء من بني العباس يستوزرون رجالاً من الموالي ضماناً للولاء والطاعة، لكن هؤلاء الموالي طمعوا في الاستبداد بالأمور والاستئثار بالسلطان، ومن هؤلاء أبو مسلم الخراساني، الذي فتك به أبو جعفر المنصور.

ولنحلل هذه الحكاية لما فيها من دروس وعبر.

حين أيقن أبو العباس السفاح بقرب انقضاء أجله دعا عمه عيسى بن علي وأعطاه كتاباً مختوماً أمره أن يذيعه على الناس بعد موته وأن يبايع المذكور فيه.

وفي شهر ذي الحجة سنة ١٣٦ هجرية أعلنت البيعة لأبي جعفر المنصور.

أرسل أبو جعفر إلى عمه عبدالله بن علي يطلب أن يبايعه، فما كان من

العم إلا الرفض وأخذ البيعة من قواده بقنسرين وخراسان، ونزل حران وغلب عليها.

فلمَّا علم أبو جعفر بالمسألة دعا إليه أبا مسلم الخرساني وسيّره إلى عمه في جحافل كثيرة، وتمكن أبو مسلم من هزيمة جيش عبدالله بن علي، لكن العم أفلح في الهروب إلى البصرة، وسرعان ما أوجس الخليفة خيفة من تعاظم أمر أبي مسلم في الدولة وسعيه إلى إزالة ملكه والاستئثار بالأمر من دونه، وشجع أبا جعفر على تنفيذ ما نواه صلفُ أبي مسلم وغرُورُه واستهزاؤه بالخليفة ذاته وأفعاله المشبوهة، كنبش القبور ومحاولة إضعاف الدولة الناشئة قبل ثبوت أركانها.

وسارع الخليفة إلى مضايقة أبي مسلم؛ فلما كتب أبو مسلم إلى الخليفة بانهزام عمه وفراره، أرسل إليه الخليفة شخصاً يدعى يقطين بن موسى ليحصي الأموال والخزائن التي غنمها أبو مسلم من المهزوم، غضب أبو مسلم غضباً شديداً وكاد أن يفتك بالرسول، وساء ذلك أبا جعفر الذي أرسل إليه كتاباً بتوليته على مصر والشام، وأن يرحل عن خراسان التي يعشش فيها أعوانه، أصم أبو مسلم أذنيه عن كتاب الخليفة.

لم ييأس أبو جعفر فأرسل إلى أبي مسلم رجلاً من رجاله هو أبو حميد المروروزي بكتاب وأمره أن يحدث أبا مسلم بألين حديث، مما حدا بأبي

مسلم إلى الذهاب إلى الخليفة في المدائن، فتلطف به أبو جعفر وبشّ له. وقال له:

« كدت أن تمضي قبل أن أفضي إليك بما أريد ».

فقال أبو مسلم:

« قد أتيت يا أمير المؤمنين فأمر بأمرك ».

فأمره أبو جعفر بالانصراف إلى منزله للراحة من السفر.

وفي الصباح استدعى المنصور أربعة من حراسه الأشداء وأمرهم بأن يكمنوا خلف رواق القصر بسيوفهم، فإذا استدعاهم وذلك بالتصفيق بيديه سارعوا بقتل أبي مسلم.

وبعد أن تم الأمر خرج المنصور إلى الناس وعرض عليهم رأس أبي مسلم وخطبهم مهدداً ثم أمر فحملت بقايا أبي مسلم وألقي بها في نهر دجلة.

وتزايد نفوذ الموالي واشتهر منهم عدد عظيم في الصدر الأول من عمر الدولة العباسية وبخاصة البرامكة، حتى لقد أطلق عليهم الناس ألفاظ الملوك.

وكان جعفر بن يحيى البرمكي هو من زيّن للرشيد أن يولي العهد للمأمون بعد أخذ البيعة لأخيه الأمين.

وما إن مات الرشيد حتى وقعت الوقائع العنيفة والجليلة بين الأمين والمأمون، وتمت الغلبة للمأمون حيث اعتمد على قائد جيوشه طاهر بن الحسين؛ وولاه المأمون خراسان مكافأة على إخلاصه وجده في القضاء على جيش أخيه.

وتكررت الحكاية مع المعتصم الذي آثر أن يركن إلى الأتراك في تسيير أمور الدولة، ولم يلبث غلمان الترك أن غلبوا على أمر الدولة وأضعفوا الخلافة عن عمد.

ناهيك عن تناحر الغلمان، وتابع الخلفاء لعب الغلمان يتسلون ويتضاحكون، ويصدرون الأوامر بتولية الغالب الولايات والوزارات، وأثّرت اللعبة تأثيراً قوياً في نزع هيبة الخلفاء من نفوس الناس.

الطالبيون والدولة:

قامت الدولة العباسية على ركيزة مهمة هي أن خلفاءها من آل البيت؛ فهم ينتسبون إلى العباس بن عبدالمطلب عم الرسول ﷺ، وكان لآل البيت فرع آخر هو البيت الطالبي الذين من نسل علي بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته الزهراء فاطمة -رضي الله عنها-.

حرص العباسيون من بداية عهدهم على تقريب الطالبيين، فسعى أبو العباس السفاح إلى خطب ودهم؛ لأنه كان يعرف أنهم يعتقدون أنهم أولى بالخلافة من بني العباس، بني عمومتهم.

قدم على السفاح بنو الحسن بن علي بن أبي طالب فأعطاهم الأموال وقطع لهم القطائع، ثم أمر رجلاً من ثقاته بالخروج معهم وأن يحسن منازلهم ويلطف معهم ثم أن يظهر الميل إليهم والتحامل على السفاح لينظر ما يكون منهم، فأغلظوا القول في السفاح، وتمنوا زوال دولته، فأحزن ذلك السفاح، ونقل إلى أخيه أبي جعفر ما دار بين رسوله والطالبيين. فتربص بهم المنصور الدوائر.

ولما مات السفاح وخلفه أبو جعفر المنصور كتب المنصور إلى عامله بالمدينة أن يفرق عطاءه الذي بعثه إليه بين أهل المدينة ولينظر من الذي يتخلّف عن العطاء.

فأرسل العامل إلى أبي جعفر بأنه لم يتخلّف عن الحضور لتلقي العطاء إلا محمد وإبراهيم ابنا عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي.

أرسل أبو جعفر إلى عبدالله يطلب ابنيه فأبى، فدس له المنصور رجلاً اسمه مسلم بن قتيبة الباهلي أغرقه بالأموال حتى لقد خلع أبا جعفر وبايع

ابنه محمداً بالخلافة، ثم رجع الباهلي إلى المنصور فأعلمه بالخبر، فبعث الخليفة يستدعي ابني الحسن فحضروا، فأمر بإلقائهم في الحبس.

ثم خرج المنصور في جيشه إلى مكة، ثم ولّى الحجاز رياح بن عثمان المري سنة ١٤٤ هجرية، فجدّ في طلب الأخوين، وهدد أهل المدينة بلا طائل.

وعمد المنصور فقتل عبدالله بن الحسن وأخاه علي بن الحسن، وأسرف في التنكيل بالطالبيين حتى اضطر محمد بن عبدالله إلى الخروج من مكمنه إلى المدينة بصحبة مئة وخمسين رجلاً، فكسر المحبس واستخرج المحبوسين، واعتلى منبر المسجد النبوي، وخطب الناس واستولى على المدينة واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن عبدالله القسري.

طارت الأخبار إلى المنصور فأمر ابن أخيه عيسى بن موسى بالسير لقتال محمد بالمدينة، فلما قرب من المدينة أرسل إلى محمد يدعوه إلى الرجوع عما هو عليه وله أمان أبي جعفر. رفض محمد عرض عيسى وخرج للقتال، وحمي وطيس المعركة، وقتل محمد وحُزَّ رأسه وبُعِثَ إلى المنصور، فأمر المنصور فطيف برأس محمد في الكوفة والأقاليم.

اعتصم إبراهيم بن عبدالله بالبصرة بعد مقتل أخيه محمد وتحصن بها، فكتب المنصور إلى عيسى بن موسى أن يترك المدينة ويتوجه لحرب إبراهيم.

وعلى مقربة من الكوفة اقتتل الفريقان اقتتالاً شديداً وانهزم أصحاب إبراهيم وقتل إبراهيم، فاحتز رأسه وأرسل إلى أبي جعفر.

وفي عهد المأمون ثارت بغداد لأن المأمون عهد بالوزارة إلى الحسن بن سهل الذي كان يميل إلى الطالبيين، والذي أشار عليه بتولية عهده لعلي الرضا بن موسى الكاظم مما أسخط العباسيين، فسارع المأمون بالتخلص من الحسن بن سهل، فتناوله بعض حرس المأمون بالسيف وما لبث أن مات علي الرضا، فانتهت الأزمة، وتخلّى أهل بغداد عن البيعة لإبراهيم بن المهدي عم المأمون.

عاد الطالبيون إلى مناوأة دولة بني العباس، وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري نظموا صفوفهم لقلب الدولة العباسية، وابتدعوا نظام الدعوة وبعثوا دعاتهم إلى الأقاليم، وأشعلوا نار الثورة على يد القرامطة فزلزلوا أركان دولة بني العباس.

لكن يجب، علينا أن نحيط بطرف من أخبار القرامطة وأهوالهم وكيف ساروا سيرة الفساد في الأرض إلى أن بدّد الله دولتهم وشتت شملهم.

من هو قرمط؟

ينتسب القرامطة إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط الذي سمي بذلك لقرمطه في مشيته أو تقارب خطاه، أو الذي كان يعمل بصناعة الآجر.

كان حمدان يقطن الكوفة، وقد تزعم نقابة العاملين بالحرف والصناعات بالكوفة، ولما التقى الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القدّاح بن ديصان وهو من اليهود داعي الإسماعيلية استماله القداح إلى الدعوة، وصار من أكبر الدعاة إلى المذهب، وسمى أتباعه بالقرامطة.

اعتقد القرامطة أن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام القائم المهدي.

نظّم حمدان قرمط حياة أتباعه؛ ففرض عليهم الضرائب والألفة، وأن يكونوا أسرة واحدة، وأن يكون مالهم مشاعاً بينهم، وفي سنة ٢٧٦ هجرية أقام حمدان الدعاة وأوصاهم بجمع السلاح، وبأن تكون النساء مشاعاً بين الرجال.

أرسل حمدان أتباعه إلى البلاد القريبة، فتغلّب أتباعه على البحرين وفارس وجزء من العراق.

واختفى حمدان سنة ٢٨٦ هجرية ولم تعرف له وجهة، وقام القرامطة بثورة على العباسيين بالكوفة سنة ٢٨٧ هـ، ثم في السنة التالية على يد أبي الفوارس أخلص أتباع حمدان.

لم يلبث القرامطة أن دخلوا في خدمة الفاطميين والدعوة لهم، وفي عهد الخليفة المقتدر شن القرمطي أبو طاهر الجنابي حملات رهيبة على قوافل الحجاج وهدم المساجد مما روّع الخليفة وأذهب هيبة الخلفاء.. وذلك سنة ٣١٢ هجرية.

وفي سنة ٣١٧ هجرية هجم أبو طاهر على مكة وقتل وسبى ثم اقتلع الحجر الأسود من مكانه وحمله إلى الأحساء.

الطريف أن عبيدالله المهدي أرسل إلى أبي طاهر منذراً يطالبه برد الحجر الأسود إلى مكة وإلا تبرأ منه، فلم يعبأ أبو طاهر بالتهديد، وظل الحجر في هجر عاصمته اثنتين وعشرين سنة كاملة، إلى أن رجع إلى مكانه عام ٣٣٩ هجرية.

لقد فعل القرمطي ما فعله من اقتلاع الحجر الأسود تدعيماً لفكرة الباطنية المجوسية من إبطال الحج إلى بيت الله الحرام ومن هدم الكعبة وإبراز عبادة النار التي هي من عقيدة المجوس ديانة الفرس القدماء.

بل إن من القرامطة من دعا الناس إلى عبادته من دون الله تعالى، وادعى الألوهية ومن هؤلاء ابن أبي زكريا الطمامي المجوسي، أو المسمى الدجال الفارسي الذي ظهر في ظروف مريبة في رمضان سنة ٣١٩ في البحرين وطعن في الأديان ودعا أتباعه إلى عبادة النار وتعظيمها، وإلى الفجور بالغلمان.

وظل القرامطة إلى أن قُضِي عليهم سنة ٤٧٠ هجرية فتفرقوا في البلاد ولم تقم لهم قائمة.

الغدر بالعهود:

ومن أسباب سقوط الدولة العباسية الرئيسة التنكر للعهود والنكث بها، فحين قامت تلك الدولة لم ترع للعهد ذمة، ولم تبال بالرجوع عما أبرمته من أمان صرفته للناس، ولقد سبق الحديث عن غدر أبي جعفر بأبي مسلم الخراساني ومن تنصله من ولاية العهد لعيسى بن موسى وصرفها إلى ابنه المهدي.

ولنرجع إلى حكاية الأمين وأخيه المأمون لنرى مقدار نبذ العهد والتنصل منه.

كان الرشيد بطوس حين حضرته الوفاة، فجدّد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهدهم أن من معه من الجند ينضمون إلى المأمون بأسلحتهم وعتادهم.

فلما توفي الرشيد كتم الفضل بن الربيع -وهو الذي استوزره الرشيد بعد هلاك البرامكة- وصية الرشيد إلى ولده المأمون، وأشار على القواد بطاعة الأمين ونبذ العهود التي أخذها عليهم الرشيد لابنه المأمون.

حزن المأمون حزناً شديداً لما انتهى إليه الخبر، لكن الفضل بن سهل وزيره طيّب خاطره وأوصاه بالكتابة إلى قواد أبيه يذكّرهم بالبيعة، لكن الفضل ابن الربيع لم يأبه بالكتاب.

وفي بغداد أوعز ابن الربيع إلى الأمين بأن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد، وأن يعهد بولاية العهد إلى ابنه موسى.

ثم بعث الأمين إلى المأمون ثلاثة نفر بينهم العباس بن موسى بن عيسى يطلبون من المأمون مبايعة موسى بن الأمين بولاية العهد، فأبى المأمون النزول على رأي الأمين، وعلم أنه لابد من انتزاع حقه من أخيه بحد السيف.

ثم عمد الأمين إلى إذلال المأمون، فأرسل إليه كتاباً يأمره فيه بأن يخلي إحدى كور خراسان، وكانت تحت ولاية المأمون؛ لأن الأمين ولّى عليها غيره؛ فغضب المأمون غضباً عاصفاً، وأرسل إليه كتاباً نارياً شديد اللهجة.

جمع الفضل بن سهل جنود المأمون واختار لقيادتهم طاهر بن الحسين من الفرس، فانطلق بالجنود إلى الري وعسكر بها.

أما ابن الربيع فولى على قيادة الجند عيسى بن ماهان.. فخرج من بغداد سنة ١٩٥ هجرية في أربعين ألفاً لقتال المأمون وحمله إلى بغداد، استهتر عيسى بقوة طاهر وجيشه، وراح يتندر ويقول: إن الثعالب من أمثال طاهر لا صبر لها على لقاء الأسْد من أمثاله.

وحين التحم الفريقان وانهزم جند عيسى، ولقي عيسى مصرعه واحتز طاهر رأسه وأرسلها للفضل بن سهل، فنهض الفضل بن سهل إلى المأمون وسلم عليه بأمير المؤمنين.

ثم جيش ابن الربيع جيشاً آخر للأمين بقيادة عبدالرحمن بن جبلة الأنباري في عشرين ألفاً.. والتقى به جيش طاهر في همذان وهزمه هزيمة منكرة.

ثم دفع الأمين جيشاً ثالثاً بقيادة عبدالله بن حميد بن قحطبة، لكن طاهر بن الحسين استطاع الاستيلاء على فارس وواسط والمدائن، وأعلن عامل الأمين على الحجاز خلع الأمين ومبايعة المأمون.

واجتمعت جيوش المأمون وحاصرت بغداد سنة ١٩٦ هجرية وقتلوا الأمين ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ ودخلوا بغداد، وانتهت حكاية الأمين.

ومن تلك الحكاية نلمس أن الأمين قد نكث بعهد أبيه الرشيد لأخيه المأمون، وأراد الخلاص منه ليعهد لابنه موسى بولايه العهد فكانت نهايته المأساوية على ذلك النحو..

وسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض.

وبذلك طويت إلى الأبد صفحة دولة بني العباس.